نهضتنا الثقافية

وبرادر الاهتمام بها

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

مما قصر فيه ذوو القدرة وذوو الكلمة النافذة في مصر أنهم لم يولوا نهضة بلادهم الأدبية بعض ما تستحق من اهتمام ورعاية ، فلسنا نعرف كبيراً من كبرائنا اهتم بالأدب إلا إذا استثنينا أولئك الذين يختار كل منهم أديباً يظهر له شيئاً من العطف ، ويبذل له شيئاً من العون على نحو ما كان يفعل السراة الأقدمون ، ويحسب أنه آزر الأدب بمؤازرته ذلك الأديب المختار ، جاهلاً أن هذا النوع من العطف الفردي على أديب ، يزري في هذا العصر بالأدب والأدباء على السواء .

وكم من حزب سياسي من أحزابنا وضع برنامجاً لسياسته ، وحرص على ألا تفوته ناحية من نواحي النشاط في الحياة المصرية ، فتحدث عما يراه من وسائل النهوض بالتجارة والصناعة ، والزراعة ، والصحة ، والتعليم والدفاع الوطني وغيره من شئوننا العامة ، ولكن حزباً واحداً لم يفكر في تخصيص سطر واحد من صفحات برنامجه لوسائل دعم نهضتنا الأدبية والفنية ، أي أن أحزابنا لم تتعمد إهمال نهضتنا الثقافية ، ولكن أمر تلك النهضة لا يخطر لها ببال حتى في الوقت الذي تكدح ذهنها فيه لوضع برنامج إصلاحي شامل .

أما كبراؤنا المحترمون فإنهم يبذلون وقتهم الثمين ومالهم النفيس في تشجيع الأفراد والجماعات المختلفة من رياضية واجتماعية ، وقد يعطفون في بعض الأحايين على هيئات علمية . ونحن لا نأخذ عليهم ذلك ، بل نقدره كل التقدير . ولكن الذي نأخذه عليهم ، أننا لم نسمع بأن واحداً منهم فكر في معاونة الأدباء على إنشاء مؤسسات أدبية على غرار المؤسسات

التي ذكرناها تلم شملهم، وتخلق لهم الجو الأدبي الذي يعين ولا هلك على تطور الأدب وتقدمه. بل أن واحداً منهم لم يخطر على باله أن هناك شيئاً اسمه أدب وان ذلك الأدب هو في نظر ذوي الرأي والبصيرة أساس التقدم الحضاري، وحافزه الأول، وقد يكون عذر المدرضين عن تشجيع الأدب أنه في غير حاجة الى تشجيعهم لأسباب نحسنا صداها يتردد في الأيام الأخيرة. ولذا نعرض لها فيما يلي: —

ما يؤخذ على تشجيع الأدب

يرى بعض أهل الرأي أن النهضات الأدبية تقوم على كواهل النوابغ من الكتّاب، وأن هؤلاء في غير حاجة إلى تشجيع الحكومة أو ذوي النفوذ من الأفراد لأنهم موهوبون، فالبزعة الأدبية فيهم سجية لا يملكون منها فكاكاً. فهم لا يبدعون حين يشجعون، ولا يصيبهم العقم حين يهملون، وقد يضر تشجيعهم عن عكس الغاية المرجوة، منه لأن العقبات التي تعترض سبيلهم كثيراً ما تحفز هممهم وتصقل مواهبهم. فالفشل قمين بأن يستحثهم على مضاعفة الجهود في سبيل التجويد، وقديماً قال الشاعر

لا بدَّ من فشل من بعده فشل حتى يجاب إلى العلياء داعيها

في حين أن التشجيع يستقر على الأغلب من نجاح سهل سريع يفعم نفوس الناجحين غروراً، ويدخل في روعهم أنهم وصلوا إلى الغاية وأصابوا الكمال، فيصرفهم عن بذل الجهد الجهيد في سبيل التجويد. وآخر ما يقال عن التشجيع إنه يغري الادباء بتملق مشجعيهم والعمل على تجنب سخطهم وكسب مرضاتهم، وتسخير أدبهم في سبيل الاشادة بأولئك المحسنين إليهم، وتحقيق أغراضهم فيصبح الأدب تابعاً لا متبوعاً، ويرسف في قيود الرق والعبودية في حين أنه لا يترعرع ويزدهر إلا في طلاقة الحرية.

وسائل تشجيع الأدب

قبل أن نضع الآراء المشار إليها في الميزان، ونتبين فيها وجه الصواب من وجه الخطأ، نذكر أن تشجيع الأدب نوعان، نوع عرفه الزمن الغابر، إذ كان أكثر الأدباء من شعراء وكتّاب يلوذون بأصحاب الجاه والمال من الخلفاء والأمراء والاشراف والحكام، فيطيلون لهم اطناب رفدهم، ويحوطون بعضهم بهالات من المجد الزهري، فيوطدون بذلك سلطانهم، ويعينونهم على تحقيق مآربهم. وما وثق أولئك من عطاء سلاح الأدب حتى شجعوا

أربابه لكل ما اهتدوا إليه من حيلة... ونوع آخر عرفه العصر الحديث، وهو يختلف كل الاختلاف عن التشجيع الماضي في وسائله ومراميه ويعتمد على إقامة المباريات ونشر الثقافة العامة. ولعل هذين النوعين في حاجة إلى زيادة إيضاح ولذلك نفصل ما سبق إجماله فيما يلي:

تشجيع الأدب في العصر الغابر

لم يكن الأدب مربحاً، بل أنه لم يكن يقيم أود رجاله قبل الاهتداء إلى آلة طباعة الكتب فاضطر المعوزون من الأدباء الى طرق أبواب الموسرين من الحكام والأمراء كما سبقت الاشارة الى ذلك. واعتنقه غير هؤلاء من هواته الذين لم تكن بهم حاجة الى احترافه، فطرقوا منه أبواباً لم يكن ليطرقها المحترفون، وأبدعوا فيه فنوناً بعد فنون، وعلى الرغم من أنهم خلفوا لنا مصنفات قيمة، فقد كانوا قلة ليست بذات خطر.

ولكن أدباء الغرب الأقدمين كانوا أوفر حظاً من أقرانهم الشرقيين، لأنهم عرفوا دون هؤلاء لوناً من الأدب درَّ عليهم بعض الربح فشجعهم على المضي في محبوبه. ذلك هو أدب المسرح الذي صار فيما بعد عماداً لمختلف ألوان الأدب الغربي. ولسنا ننكر ما لبعض أدباء العرب من فضل في نقل قطوف من الآداب الأجنبية إلى اللغة العربية، وما لبعض سادة العرب من فضل كذلك في حثهم الأدباء والعلماء على وضع بحوث مستفيضة في مختلف العلوم والفنون. ولكن الجهود التي بذلت في تلك السبيل كانت فردية متفرقة.

ومن المعروف أن الحكومة الفرنسية قد درجت منذ مستهل العصر الحديث على منح كل عالم أو أديب ظهر فضله وعمَّ نفعه معاشاً سنوياً دون أن تكلفه عملاً أو تفرض عليه رأياً، أو تحاسبه على حركاته وسكناته. وكان الشاعر الفرنسي موليير من بين أولئك الأدباء الأفذاذ الذين قدرتهم دولتهم وأجزلت لهم العطاء لتمكنهم من التفرغ لاداء رسالتهم الأدبية بدل تضييع وقتهم هباء، وجهدهم بدداً في سبيل تحصيل القوت. فكسبت الأمة الفرنسية لقاء مبلغ زهيد من المال تلك الذخائر الأدبية الخالدة.

ولم تكتف الحكومة الفرنسية بمد يد العون الى الأدباء من أبنائها بل جاوزتهم الى حملة الأقلام من الأجانب. وكان من بين هؤلاء هاينيه الشاعر الألماني الذي كتب كتابه «ريزبيلدر» وغيره من روائع آثاره في فرنسا.

وقد أنشأت تلك الحكومة «الأكاديمية الفرنسية» التي شجعت الأدب بتتويج كتبه الممتازة والتنويه بمؤلفيها. وعملت على نشر الثقافة بإقامة الجمعيات والنوادي الثقافية،

وناشدت أساتذة المدارس أن يعملوا على ترغيب الطلبة في الاطلاع على كتب الأدب، فتوطدت بذلك أركان النهضة الأدبية الفرنسية.

وقد رأى دزرائلي وهو على رأس الحكومة الانجليزية أن يقوم هو أيضاً بنصيب من تشجيع الأدب فعرض على كل من توماس كارليل ومستر تينيسون أسمى أوسمة دولته، ومعاشاً سنوياً جزيلا، فرفض أولهما العرض لأسباب سياسية، وقبل الثاني اللقب دون المال، فصار يلقب اللورد تينيسون.

وإذا كانت حكومة انجلترا لم تسخ سخاء الحكومة الفرنسية في تشجيع الآداب، فإن صفوة المجتمع الانجليزي تولت عنها هذه المهمة السامية، وسدت النقص على خير وجه فلم تأل مجهوداً في سبيل نشر الثقافة العامة ودعم صرحها.

تشجيع الأدب في العصر الحاضر

تبذل وزارة المعارف العمومية جهدها في سبيل تشجيع التأليف وتتذرع ببعض الوسائل للوصول الى تلك الغاية، فهي تفحص كل كتاب ثقافي يصدر في مصر أو في البلاد العربية الشقيقة وتشتري منه عدداً مناسباً من النسخ في حالة التثبت من صلاحيته للاقتناء، وتوزع بعض هذه النسخ على مكتبات المدارس والمعاهد العلمية، وتهدي بعضها الآخر للنوادي والجمعيات والمؤسسات الثقافية. وهي تقيم المباريات في مختلف فنون الأدب والعلم، وتجيز الفائزين وتنوه بمؤلفاتهم، وتقوم على طبعها ونشرها في بعض الأحوال ثم انها تمنح المؤسسات الثقافية منحاً ماليًّا لتعينها على الاضطلاع بالمهمة الثقافية التي أخذت على نفسها الاضطلاع بها، وتكافىء بعض المؤلفين على كتب لا يتوقع لها الرواج بين جمهور القراء لصعامة مادتها.

ويشارك المجمع اللغوي وزارة المعارف في تشجيع الأدب باقامة مباريات أدبية دورية، وقد صول أخيراً على تتويج الكتب الممتازة ليرشد القراء من ناحية الى خير ما يقرأون، ويشجع الكتّاب تشجيعاً أدبيًّا من ناحية أخرى.

ولسنا نعلم كما سبق القول إن أحد رجالاتنا اهتم بالأدب اهتماماً جديًّا وخصص جوائز مالية للمتبارين في حفلته، اللهم إلا إذا استثنينا تلك الجوائز الخمسية للطلبة الممتازين في بعض كليات جامعتينا. وما من شك في أن أي مشروع عام لا يمكن أن يكتب له النجاح الا إذا أيده الشعب، وأخلص في العمل على نجاحه. ولن تصيب وزارة المعارف ذروة النجاح

في مهمتها الا إذا عاونها الشعب على ذلك معاونة جدية . وسنحاول في مقال تال أن نرسم وسيلة تلك المعاونة لعلّ المخلصين للأدب في هذا البلد أن يتسموا بالأمل ولا يضنوا ببذل الجهد في سبيل الوصول الى الغاية التي ينشدها كل مصري مخلص .

سود على بده

وإذ فحصنا أوجه الاعتراض على تشجيع التأليف ، وقومناها على ضوء ما قدمنا من بيان ، وجدنا أن وسائل التشجيع الحديثة تكاد تخلو من عيوب الوسائل القديمة وتسلم من كل اعتراض . فالتشجيع الحاضر يهدف الى خلق بيئة تساعد على نمو النهضة الأدبية وازدهارها دون التعرض لتوجيهها وجهة خاصة .

أما القول بأن الأدباء في غير حاجة الى تشجيع فهو مناقض لطبيعة الأشياء ، لأن التشجيع بشطريه المادي والأدبي يحفز الهمة ، ويحث على مضي الأديب في طريق الخلق والابداع . وكل كاتب كبير بدأ حياته كاتباً مغموراً واحتاج في أول عهده بالكتابة الى المؤازرة والمعاضدة والمباريات العامة لا تتيح للكاتب نجاحاً سهلاً ، ولكنها ترفع من شأن الجيد دون المحقق ، وإذا قام بالتحكيم أدباء عرفت لهم الأمة قدرهم ، فان من الاجحاف أن يساء فيهم الظن ، أو أن يفترض فيهم الغرض .

إن تشجيع الأديب لن يحول بحال دون قيام العقبات في سبيل وصول النفس من الكتاب إلى ذروة الشهرة . فهم لا بد معرضون للفشل من بعده فشل حتى تتحقق آمالهم ، ولن يعدموا العبرة والفائدة في المركب الوعر الذي يركبون .

أما شبهة خضوع الكتاب لمشجعيهم واهتدائهم بهديهم ، والسعي إلى إرضائهم والعمل على تحقيق أغراضهم ومطامعهم ، فلا يعد له مجال اليوم فانه ظاهر من وسائل التشجيع التي ذكرناها أن المشجعين الذين يلتمسونها لا يتصلون بالأدباء ، ولا يوجهونهم ، ولكنهم يمهدون للنهضة الأدبية تمهيداً عاماً شاملاً لا يرمي إلا إلى الغاية السامية التي يتوخاها كل مخلص .